



ظاهرة التأدب في كتاب : " أدب الدنيا والدين " للماوردي

دراسة تداولية

محمد مدور

قسم اللغة والأدب العربي - كلية الآداب واللغات - جامعة غرداية - الجزائر

البريد الإلكتروني: mohammed.meddour@yahoo.com

الملخص :

تتناول هذه الدراسة ظاهرة تداولية عند أحد أعلام التراث العربي وهو أبو الحسن الماوردي في كتابه (أدب الدنيا والدين) . وهذه الظاهرة هي إحدى قواعد التهذيب التخاطبي وهي (التأدب) . التي دعا إليها التداوليون المعاصرون وفلاسفة اللغة . وتنطلق هذه الدراسة من إشكالية تخص الضوابط التهذبية والتبليغية للتخاطب، ومحاولة الكشف عن إسهامات أبو الحسن الماوردي في تقعيدها .

لقد ركز الإمام الماوردي طيلة خمسة فصول من كتابه (أدب الدنيا والدين) على آليات نجاح التخاطب، وكيفية الإتيان به على مقتضى الصواب والتهذيب، الذي يتقبله المستمع ويستحسنه . والتأدب مبدأ تداولي ينبني عليه التخاطب، ولتحقيق هذا المبدأ التهذبي وضع الماوردي مجموعة من الشروط وهي : أن يكون للكلام داع يدعو إليه ، وأن يأتي المتكلم به في موضعه ، وأن يقتصر من الكلام على قدر حاجته ، وأن يتخير اللفظ الذي يتكلم به ، وهذا الشرط الأخير هو لب مبدأ التأدب . وختمت هذه الدراسة بأداب الكلام التي وضعها الماوردي تكميلا لشروط التأدب . وهي : أن لا يتجاوز المتكلم في مدح ، ولا يسرف في ذم ، وألا

يستترسل في وعد أو وعيد يعجز عن الوفاء بهما ، وأنه إذا قال قولاً حققه بفعله ، وأن يراعي المتكلم مخارج كلامه بحسب مقاصده وأغراضه .

The act of politeness in El-Maouredi's "The Ethics of Life and spirituality": A pragmatic study

Abstract-

The present study discusses a pragmatic feature in Abu-El Hassan Al-Mouredi's book "The Ethics of Life and spirituality". This feature is one of the communicative courtesy basics that is suggested by the modern pragmaticists linguists, which is "Politeness". This study probes courtesy and speech standards and investigates the contributions of Abu-El Hassan Al Mouredi in consolidating them. In the five chapters of the book, He focuses on the mechanisms of making the speech successful and on the ways of making it accurate and polite so that the recipient consents and approves it. Politeness is a pragmatic principal that the speech is relied on. In order to achieve this courteous standard, Al Mouredi sets certain rules, which are: the speech should meet an objective and the speaker should properly address it. Moreover, the speaker should limit the speech according to his needs and properly chooses the words he might use. This later is the core of politeness act. This study ends with the ethics of speech that are set by Al Mouredi to fulfill the basics of politeness which are: the speaker shouldn't over- praise and shouldn't exceed vilification. Besides, the speaker shouldn't set ongoing promises and threats that he couldn't keep. The speaker has to say what he could do and realize and consider his speech according to its aims and purposes.

التأدب في القول ظاهرة قديمة راسخة الجذور في التراث العربي ، وازدادت رسوخا وسموا بنزول القرآن الكريم وانتشار البلاغة النبوية ، وقام جانب من الدراسات اللغوية الحديثة بالعناية بهذه الظاهرة فقد اهتمت التداولية ليس بقواعد التبليغ فقط بل بقواعد التهذيب أيضا . فالتداولية :مكون من مكونات اللغة ،

يهتم بالعلاقات القائمة بين الأدلة ومستعملها واستعمالها وآثارها ، ويعالج وصف معنى الملفوظات في سياقها⁽¹⁾

"إن التداولية من جهة أخرى هي المعرفة الشاملة بالآخر ، والمعرفة العميقة بمكونات عملية التخاطب."⁽²⁾

يقوم المتكلم بأداء أفعال كلامية أو إجراء حوارات تواصلية مع المتلقين ، وهو في كل ذلك ينبغي

أن يُجمل كلامه بقواعد التبليغ وسائر المصاحبات الحوارية .

وقد لخص شارل موريس (1938) مفهوم التداولية في إدراك العلاقة بين العلامات ومستعملها ، ووجه العلاقة بين التداولية ومبدأ التأدب أنها متصلة بالمخاطبات وأحوال المتخاطبين وظروف إنتاج الخطاب وإنتاج الأقوال وفق المقامات . وتنضبط الأقوال بقواعد تحدد وجوه استقامتها الأخلاقية تسمى : "قواعد التهذيب" .

فما هي الضوابط التبليغية والتهذيبية التي تخص التخاطب ؟ وما مدى عناية العلماء العرب بقواعد التهذيب التخاطبي ؟ وماهي إسهامات أبو الحسن الماوردي في هذا المجال ؟

إن مبدأ التأدب القائم على تخير اللفظ بصفة خاصة مبحث طرح فيه العلماء العرب آراء وأسهموا بالتأليف فيه ونذكر منهم بشر ابن المعتمر في صحيفته ، والجاحظ في كتاب البيان والتبيين ، وأبو هلال العسكري في كتاب الصناعتين ، والغزالي في كتابه إحياء علوم الدين ، وابن رشيق في كتابه العمد ، وابن سنان الخفاجي في كتابه سر الفصاحة وابن الأثير في كتابه المثل السائر

(1) - ينظر: دومينيك مونغونو . المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب . ترجمة :محمد يحياتن . منشورات الاختلاف ط1/ 2008 ص 101 .

(2) - عبد السلام عشير . عندما نتواصل نغير مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج . افريقيا الشرق المغرب ط1/ 2006 . ص 18 .

،والقلقشندي في كتابه صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، وابن أبي الدنيا في كتاب الصمت وغيرهم .

ومن المحدثين نذكر الباحث طه عبد الرحمن في كتابه اللسان والميزان وغيره من الدارسين مثل :عبد الهادي بن ظافر الشهري في استراتيجيات الخطاب . كما اهتمت الأبحاث التداولية بهذا المجال من خلال القوة الإنجازية المستلزمة ويرى سيرل : "أن التأدب في إنجاز الأفعال التوجيهية هو الدافع لاستعمال الاستراتيجية غير المباشرة".⁽³⁾ فالتأدب في الخطاب كمراعاة البعد الشرعي أو الاجتماعي أو الذاتي والابتعاد عن الكذب باستعمال التعريض كل ذلك من مسوغات استعمال الاستراتيجية التلميحية .

مفهوم التهذيب :

إن أول مراتب العمل الضرورية لحصول التخاطب هو حدوث فعل القول ولا بد من الإتيان به على مقتضى الصواب والتهذيب و أحكام التعامل ،ومن بين هذه الأحكام مفهوم الاستقامة الذي أشار إليه سيبويه "وأما المستقيم القبيح فإن تضع اللفظ في غير موضعه نحو قولك قد زيدا رأيت ،و كي زيدا يأتيك وأشباه هذا".⁽⁴⁾

وكذلك لفظ التهذيب فقد وضع هذا اللفظ أصلا لإفادة معنى تعاملي وهو تقويم الاعوجاج والتربية الصالحة ، ثم صار مستعملا في معنى تخليص الكلام مما يعيب وظيفته التواصلية أو التبليغية . فقليل هذب الكلام كما يقال (هذب الصبي).⁽⁵⁾

⁽³⁾ John Searle . Expression and meaning . Studies in the theory of speech acts . p 36 .

⁽⁴⁾ – سيبويه(أبو بشر عمر بن قنبر) الكتاب . تح : عبد السلام هارون . دار الجيل بيروت ط1 . 26/ 1

⁽⁵⁾ – ينظر : طه عبد الرحمن . اللسان والميزان . المركز الثقافي العربي الدار البيضاء . ط1 . ص222 .

كما أن المتكلم يحاول أن يقدم خطابه على الوجه المهدب الذي يتقبله المستمع ويستحسنه ، بحيث يكون خاليا مما يشينه ويعيبه . وقد عرف طه عبد الرحمن التهذيب بقوله : "التهذيب هو عبارة عن العمل الذي يخلص القول الطبيعي مما يعيب دلالاته وينزع عنه أسباب الانتفاع به."⁽⁶⁾ ولا يرتقي المبلغ مرتقى المتكلم حتى يكون في قوله مهذبا ،ولا تهذيب بغير فتح باب انتفاع المستمع بالفائدة المبلغة . "غير أن هذا التهذيب قد يكون على درجتين مختلفتين نسمي إحداها التآدب والثانية التخ.

فالتآدب : أن يأتي المتكلم بفعل القول على الوجه الذي يبرز دلالاته القريبة ، ويقوي أسباب الانتفاع العاجل به .

التخلق : "أما التخلق فمقتضاه أن يأتي المتكلم بفعل القول على الوجه الذي يبرز به دلالاته البعيدة ، فضلا عن دلالاته القريبة ."⁽⁷⁾ فواضح أن هذا الضرب من التهذيب يعلو على الأول رتبة ، والتخلق أرقى من التآدب .

تعريف التآدب :

لقد شغل مفهوم التآدب قدرا من الاهتمام في كتب العلماء العرب وكاد موقفهم أن يكون موحدًا واضحًا من هذا المفهوم "وأن تمييز استخدام نمطين من أفعال الكلام تقوم على أساس أن الطلب غير المباشر هو ببساطة من قبيل الأدب".⁽⁸⁾ والتآدب مبدأ تداولي يبنني عليه التخاطب ،

يقول طه عبد الرحمن : "أما التآدب فمقتضاه أن يأتي المتكلم بفعل القول على الوجه الذي يبرز به دلالاته القريبة ، ويقوي أسباب الانتفاع العاجل به ، فلا يخفى أن هذا الضرب من التهذيب يولي الأهمية في التخاطب لعملية

⁽⁶⁾ - نفسه . ص 223 .

⁽⁷⁾ - نفسه . ص 223 .

⁽⁸⁾ - صلاح الدين حسنين. في لسانيات العربية . دار الفكر العربي . القاهرة . 2011 .

التبادل".⁽⁹⁾ وينتج عن هذا المبدأ أن يلتزم المتكلم والمخاطب في تعاونهما على تحقيق الغاية التي دخلا من أجلها في الكلام ، ومن التأدب أن يقدم المتكلم حقوق المخاطب على حقوقه ، وليس في هذا التقديم حط من مكانة المتكلم.⁽¹⁰⁾

يتعين على المتكلم الإتيان بالقول على الوجه المهدب فإن التهذيب هو عبارة عن العمل الذي يخلص القول الطبيعي مما يعيب دلالته ؛أي أن تكون الأقوال سائلة مما يعيبها في عين المستمع ، فالمتكلم ليس مجرد ذات للتبليغ ، وإنما هو ذات محمولة على التهذيب أو قل : "لا يرتقي المبلغ مرتقى المتكلم حتى يكون في قوله مهذباً".⁽¹¹⁾

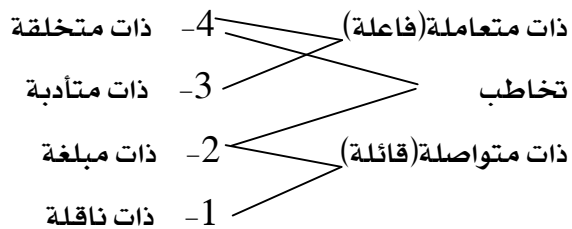
ففي العلاقة التخاطبية لا يكون المتكلم ذاتا واحدة ، وإنما هو ذوات متعددة مرتبة من الأدنى إلى الأعلى ، وتنزل ذاتها الناقلة أدنى المراتب ، وهي الذات التي تتكلم بظاهر الأقوال وصريحها . وتليها ذاته المبلغة وهي التي تأخذ بباطن الأقوال ومجازاتها إلى جانب التعبير الحقيقية . وتليها الذات المتأدبة وهي التي تأخذ بفعل القول

سعيها منها إلى تحقيق أغراض ، وجلب منافع عاجلة ، ولذلك نجد المتكلم حريصا على إبقاء التواصل ، فالدافع إلى التأدب في الكلام هو قضاء المصالح . وتليها الذات المتخلقة وهي الذات التي تأخذ بفعل القول سعيها منها إلى تحقيق منافع آجلة ، والمتكلم لا يتشاغل باسترضاء المخاطب ، وإنما يحاول أن يتجنب دواعي الطمع والتكلف ، بحيث لا يقتصر نفعه على نفسه بل يتعداه إلى غيره .

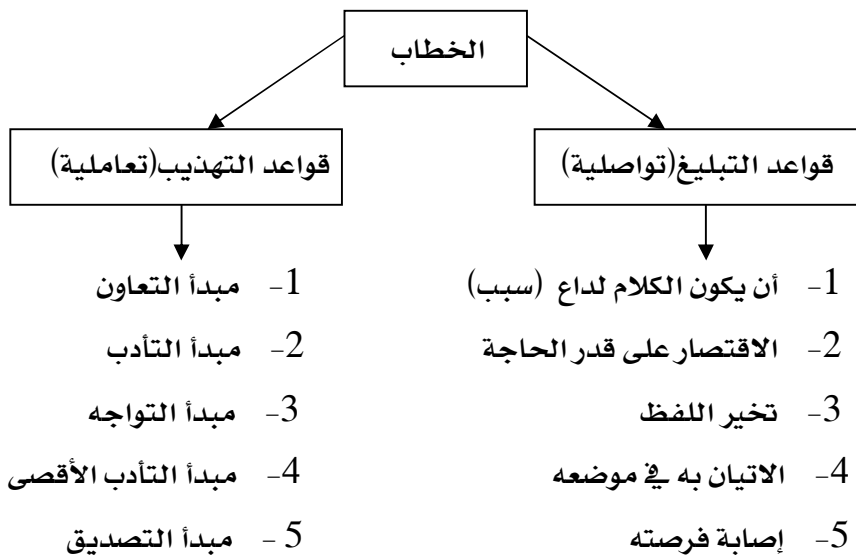
(9) - طه عبد الرحمن . مرجع سابق . ص 223 .

(10) - ينظر : نفسه . ص 252 .

(11) - نفسه . ص 223 .



ولابد من الاتيان بالأقوال على مقتضى الصواب والتهذيب ، بحيث يكون الخطاب مشتملا على جزئين هما قواعد التبليغ ، وقواعد التهذيب . فقواعد التبليغ تتضمن مجموعة من الشروط والآداب التي إن أغفلها المتكلم ذهب رونق كلامه . أما قواعد التهذيب فهي جوانب ترافق الحوار (مصاحبات حوارية)⁽¹²⁾ بمعنى الاتيان بالأقوال على الوجه المذهب وهي تتضمن مبادئ التعاون والتأدب والتواجه والتأدب الأقصى والتصديق . وهي مرتبة كما يوضحها الشكل التالي .



(12) – ينظر : العياشي أدراوي . الاستلزام الحوارية في التداول اللساني . ص 123 .

أمثلة من تلطيف الخطاب في القرآن الكريم :

التراث الإسلامي غني بمفاهيم التأديب والتعذيب التخاطبي، والنص القرآني نموذج لاستخدام هذه المبادئ ، ونذكر منها الأمثلة التالية : ففي قوله تعالى : (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم) [البقرة 142] فقد أخبر الله نبيه بهذا القول قبل وقوعه ، ولتجنب خوف المسلمين من أذى اليهود والمنافقين وكفار مكة عمد الخطاب القرآني إلى تلطيف الخبر بوصف هؤلاء بالسفهاء ، والاعلام بأن هذا القول أثر السفاهة فلا يبالى به ولا يتألم منه . فليعلم المؤمنون أن الخطاب صادر من سفهاء فلا يعتد به . وبذلك تعدلت القوة الإنجازية للفعل الكلامي الإخباري إلى جهة التلطيف والتخفيف، فيكون الهدف هو تهئية النفوس حتى لا تتأثر بالصدمة ، ويكون المطلوب من المخاطبين هو استقبال القبلية الجديدة دون اعتبار لأقوال الناس .

ومثال آخر في قوله تعالى : (ننعم من يتبع الرسول) [البقرة 143] أي ليعلم رسولنا والمؤمنون والإشكال واقع في لفظ (ننعم) لأن الله يعلم من يتبع ومن يرتد ، وقد أرجع الإمام الرازي ذلك إلى التأديب في التعبير الذي اختاره المولى عزوجل لتخفيف درجة الشدة للغرض الإنجازي للفعل الكلامي وهو (الاستمالة) فقال : أي: (إلا لتعلموا) والغرض هو الاستمالة والترفق في الخطاب . وهو مثل قوله تعالى في آية أخرى (وإنا أو إياكم لعلى هدى) [سبا 34] فأضاف الكلام الموهم للشك إلى نفسه ترقيقا للخطاب ورفقا بالمخاطب⁽¹³⁾ . ويقول ستيفن أولمان عن ظاهرة التلطف في الكلام : "أنه وسيلة مقنعة بارعة لتلطيف الكلام وتخفيف وقعها".⁽¹⁴⁾

(13) – ينظر : فخر الدين الرازي . التفسير الكبير ومفاتيح الغيب . ط1/1981 . دار الفكر

للطباعة والنشر . 2/ 115

(14) – ستيفن أولمان . دور الكلمة في اللغة . ترجمة كمال بشر . ص 174 .

فالخطاب القرآني هنا يهدف إلى استمالة قلوب المسلمين ، وإظهار الرفق بهم باستخدام المبدأ التداولي (التأدب) لتحقيق التواصل ولا يخفى ما في ترقيق الخطاب من تخفيف درجة الشدة للغرض الإنجازي ، فبهذا يكون التهذيب مرادفا للترفق . والوعي بهذه الأساليب يحقق التواصل ، والإقناع ، والتودد ومن ثم يتحقق التعاون الحواري .

قواعد التبليغ وقواعد التهذيب في الدراسات الغربية :

أكد غرايس على وجوب مراعاة مبدأ التعاون ، والقواعد المتفرعة عنه في كل تحاور . وهي : مبدأ الكم ، ومبدأ الكيف ، ومبدأ العلاقة ، ومبدأ الجهة . وهذه المبادئ تسمى مسلمات الحوار ، ولا يقتصر المتحاوران على مبدأ التعاون فحسب ، بل أدخل العلماء جملة إضافات وتعديلات على مبدأ التعاون ، فقد أضاف العالمان ويلسن وسبربر مبدأ الملاءمة . وأضافت روبين لاكوف مبدأ التأدب وهو الذي يسميه ديكرود مبدأ التلطف

ويضيف ديكرود إلى قوانين الخطاب قوانين أخرى مثل : قانون الاقتصاد ، وقانون التسلسل ، وقانون التلطيف وهذا الأخير يقصد به التأدب ، وهذا التلطيف هو وسيلة من وسائل تعديل القوة الإنجازية للفعل الكلامي وذلك بتلطيف الخطاب للتخفيف من تأثيره على النفوس . وأضاف براون / ليفنسن مبدأ التواجه . وأضاف جوفري ليتش مبدأ التأدب الأقصى . وأخيرا أضاف طه عبد الرحمن مبدأ التصديق . ولقد أسقط غرايس الجانب التهذيبي من اعتباره ، واكتفى فقط بجانب التبليغ في التحاور . ومن المبادئ التي أضيفت إلى ما اقترحه غرايس مبدأ التهذيب ، وهو المبدأ التداولي الذي أورده روبين لاكوف Robin lacoff في محاضرتها الشهيرة (منطق التأدب) وصيغة هذا المبدأ : (لتكن مؤدبا)⁽¹⁵⁾

(15) - ينظر : طه عبد الرحمن . مرجع سابق . ص 240 .

"هكذا يتضح أن مبدأ التأديب يفضل مبدأ التعاون على اعتبار أنه يجمع بين الجانبين التبليغي والتعديبي من الخطاب."⁽¹⁶⁾

قواعد التخاطب المتفرعة على مبدأ التأديب :

لقد فرعت لاكوف على مبدأ التأديب القواعد التهذيبية الثلاث الآتية :

1- قاعدة التعفف⁽¹⁷⁾ : ومقتضاها هو : لا تفرض نفسك على المخاطب .

2- قاعدة التشكك : ومقتضاها هو : لتجعل المخاطب يختار لنفسه

3- قاعدة التودد : ومقتضاها هو : لتظهر الود للمخاطب .⁽¹⁸⁾

ونورد فيما يلي توضيحا لهذه القواعد

1- قاعدة التعفف : توجب قاعدة التعفف على المتكلم ألا يستعمل من

العبارات إلا ما يمكنه من حفظ مسافة بينه وبين المخاطب متجنباً الصيغ التي

تحمل دلالة وجدانية مثل أفعال القلوب ، ولا يحملها على فعل ما يكره محترزا

من استعمال عبارات الطلب المباشرة ، ولا يمكن استيفاء مقتضى التعفف إلا إذا

اجتئنا أن نبلغ المستمع كل ما من شأنه أن يعارض إرادته أو يعوق رغائبه

2- قاعدة التشكك : فتقضي بأن يتجنب المتكلم أساليب التقرير ويأخذ

بأساليب الاستفهام ، كما لو كان متشككا في مقاصده بحيث يترك للمخاطب

مبادرة اتخاذ القرارات كأن يقول له : (قد يكون من المفيد أن تفعل كذا) بدل

أن يقول : (ينبغي عليك فعل كذا) .

3- قاعدة التودد : يقول طه عبد الرحمان موضحا هذه القاعدة " أما قاعدة

التودد فإنها توجب على المتكلم أن يعامل المخاطب معاملة الند للند ، ولا تفيد

هذه المعاملة إلا إذا كان المتكلم أعلى مرتبة من المستمع ، أو في مرتبة مساوية

⁽¹⁶⁾ - العياشي أدراوي . مرجع سابق . ص 118 .

⁽¹⁷⁾ - ينظر : طه عبد الرحمن . مرجع سابق . ص 240 . المقابل الحريفي لكلمة (تعفف) هو

التأديب بالأداب العامة .

⁽¹⁸⁾ - ينظر : نفسه . ص 240 .

لمرتبته ،ومتى قام المتكلم بشرط المعاملة بالمثل مستعملا لذلك الأدوات والأساليب والصيغ التي تقوي علاقات التضامن والصدقة بينهما نحو :ضمير المخاطب والاسم والكنية واللقب ، أنس به المخاطب أنسا ،واطمأن اطمئنانا إلى ما يبديه له المتكلم من ثقة وعناية.⁽¹⁹⁾

إن هذه القواعد التهذيبية هي تأدب اجتماعي مغرض يتسم بالكياسة والمجاملة والمداواة.

والقواعد التهذيبية التي جاءت بها لاكوف تنظم ما تناساه غرايس "وقد ظهر أنه بالإمكان رد القواعد التعاونية إلى قاعدة التعفف".⁽²⁰⁾ ويختلف مفهوم التأدب الذي أورده لاكوف عن مبدأ التأدب الأقصى الذي جاء به لبيتش في كتابه (مبادئ التداوليات) والذي يعده مكملا لمبدأ التعاون ، أما مبدأ التصديق ، وهو مبدأ راسخ في التراث الاسلامي ، وقد اتخذ صورا مختلفة منها : "مطابقة القول لل فعل" و "تصديق العمل للكلام " ويصاغ هذا المبدأ كما يلي : "لا تقل لغيرك قولا لا يصدقه فعلك" وتتفرع على مبدأ التصديق قواعد مضبوطة نجدها مجتمعة عند الماوردي في كتابه أدب الدنيا والدين . وهي :⁽²¹⁾

- 1- ينبغي للكلام أن يكون لداع يدعو إليه .
 - 2- ينبغي أن يأتي المتكلم به في موضعه .
 - 3- ينبغي أن يقتصر من الكلام على قدر حاجته .
 - 4- يجب أن يتخير اللفظ الذي به يتكلم .
- نجد هذه القواعد جامعة لمبدأ التعاون ، والقواعد المتفرعة عليه ما عدا قاعدة الكيف .

(19) - نفسه ص 240 .

(20) - نفسه . ص 242 .

(21) - ينظر : أبو الحسن الماوردي . أدب الدنيا والدين . ص 266 - 270 .

القاعدة الأولى وهي : أن يكون الكلام لداع ، تقوم مقام مبدأ التعاون ، إذ أنها تشترط تحديد هدف معين للمخاطبة ، فإن خلت منه المخاطبة كانت بإصطلاح الماوردي : (هَجْرًا) أو (هَذِيانًا) .

وهذه القاعدة هي الشرط الأول من شروط التخاطب عند الماوردي ويوضحه بقوله : إذ أن ما لا داعي له هذيان ، وما لا سبب له هَجْرٌ، ومن رخص لنفسه الكلام ولم يراع صحة دواعيه كان قوله مرذولاً ، ورأيه معلولاً . وحكي عن أبي يوسف الفقيه أن رجلاً كان يجلس إليه فيطيل الصمت فقال له أبو يوسف : ألا تسأل ؟ قال : بلى متى يفطر الصائم ؟

قال : إذا غربت الشمس . قال : فإن لم تغرب إلى منتصف الليل ؟ قال : فتبسم أبو يوسف رحمه الله وتمثل بيتي الخطفي جد جرير:⁽²²⁾

عجبت لأزدراء العي بنفسه وصمت الذي قد كان بالقول أعلما
وفي الصمت ستر للعي وإنما صحيفة لب المرء أن يتكلما

والقاعدة الثانية وهي : الإتيان بالكلام في موضعه ، فهي تنزل منزلة قاعدة **العلاقة** عند غرايس ؛ إذ أنها تقضي بأن يكون لكل مقام قول يناسبه . ويوضح الماوردي هذا الشرط بقوله : أن يأتي الكلام في موضعه ؛ لأن الكلام في غير حينه لا يقع موقع الانتفاع به ، فإن قدم ما يقتضي التأخير كان عجلة وخرقا ، وإن أخر ما يقتضي التقديم كان توانيا وعجزا ؛ لأن لكل مقام قولا .⁽²³⁾

والقاعدة الثالثة وهي : الاقتصار من الكلام على قدر الحاجة . وهي تقوم مقام الكم عند غرايس ؛ إذ أنها توجب الاكتفاء بالضروري من الخبر ، حتى إذا خرج الكلام عنها بالتقصير كان باصطلاح الماوردي (حصرا) أو خرج عنها بالتكثير كان باصطلاحه أيضا (هذرا) . يقول الماوردي في هذا الشرط : فإن الكلام إن لم ينحصر بالحاجة ولم يقدر بالكفاية لم يكن لحده غاية ، ولا لقطره نهاية . قال

(22) – ينظر : نفسه . ص 203 .

(23) – ينظر : نفسه . ص 203 .

صلى الله عليه وسلم : " نظر الله وجه امرئ أوجز في كلامه فاقصر على قدر حاجته " قال بعض الشعراء :

وزن الكلام إذا نطقت فإنما يبدي عيوب ذوي العيوب المنطق

فإن لم تجد قولاً سديداً تقوله فصمتك عن غير السداد سداد

وقال أبو عثمان الجاحظ : " للكلام غاية ، ولنشاط السامعين نهاية ، وما فضل عن الاحتمال ودعى إلى الاستثقال والملال فذلك الفاضل هو الهذر."

وقال بعض البلغاء : " عي تسلم منه خير من منطق تندم عليه ، فاقصر على الكلام ما يقيم حجتك ، ويبلغ حاجتك ، وإياك وفضوله ."⁽²⁴⁾

والقاعدة الرابعة وهي : تخير اللفظ الذي يتكلم به . فهي تنزل منزلة قاعدة الجهة عند غرايس ؛ إذ إنها تشترط مراعاة صحة المعاني ، وفصاحة الألفاظ ، وأساليب الوضوح . فإذا خرج الكلام عن هذه القواعد كان مختل المعنى ومستغلق اللفظ.⁽²⁵⁾ وهذا الشرط (تخير اللفظ) هو لب مبدأ التأدب ، وهو اختيار اللفظ الذي يتكلم به ، يقول الماوردي : " فيلزم أن يكون بتهذيب ألفاظه حرياً ، وبتقويم لسانه ملياً ، وليس يصح اختيار الكلام إلا لمن أخذ نفسه بالبلاغة ، وكلفها لزوم الفصاحة ، حتى يصير متديراً بها معتاداً لها ، فلا يأتي بكلام مستكره اللفظ ، ولا مختل المعنى ..."⁽²⁶⁾ لأن البلاغة أن تكون المعاني الصحيحة مستودعة في ألفاظ فصيحة ، فتكون فصاحة الألفاظ مع صحة المعاني هي البلاغة .

وتكون فصاحة الألفاظ بثلاثة أوجه :

الأول : مجانية الغريب الوحشي ، حتى لا يمجّه سمع ، ولا ينفر منه طبع .

(24) – ينظر : نفسه . ص 206.

(25) – ينظر : طه عبد الرحمن . مرجع سابق . ص 250.

(26) – أبو الحسن الماوردي . مرجع سابق . ص 206.

الثاني : تنكب اللفظ المستبدل ، والعدول عن الكلام المسترذل حتى لا يستسقطه خاصي ولا ينبو عن فهمه عامي . كما قال الجاحظ في كتاب البيان : " لم أر قوما أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب ، وذلك أنهم التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ، ولا ساقطا عاميا ."

الثالث : أن يكون بين الألفاظ ومعانيها مناسبة ومطابقة . وقال بعض البلغاء : " لا يكون البليغ بليغا حتى يكون معنى كلامه أسبق إلى فهمك من لفظه إلى سمعك." (27)

شروط الكلام التي وضعها الماوردي :

قسم الماوردي كتابه أدب الدنيا والدين إلى خمسة أبواب هي : فضل العقل وذم الهوى ، أدب العلم ، أدب الدين ، أدب الدنيا ، أدب النفس . و أشار المؤلف في كتابه إلى ضرورة التأدب في القول ، وإلى خطورة الكلام بأن المتكلم حين يتكلم فإنه يفصح عن مكنونات نفسه ، فإذا تلفظ بأقواله وتلقاها المخاطب بأسماعه فلا يمكن استردادها . ولذلك وجب على العاقل ضبط أقواله ، والاحتراز من الزلل . يقول أبو الحسن الماوردي : " إعلم أن الكلام ترجمان يعبر عن مستودعات الضمائر ويخبر بمكنونات السرائر لا يمكن استرجاع بواده ، ولا يُقدر على رد شوارده ، فحق على العاقل أن يحترز من الزلل بالإمساك عنه أو بالإقلال منه." (28) ولعل لزوم الصمت أخرى بمن لا يملك السيطرة على كلامه . قال أبو الحسن الماوردي : " إلزم الصمت فإنه يكسبك صفوالمحبة ، ويؤمنك سوء المغبة ويلبسك ثوب الوقار ويكفيك مؤنة الاعتذار." (29)

(27) - ينظر : نفسه . ص208.

(28) - نفسه . ص202

(29) - نفسه . ص203.

مصطلحات التهذيب عند الماوردي :

استخدم الماوردي مجموعة مصطلحات دالة على أساليب التخاطب وضوابط التحاور وقواعد الاستعمال ، وعلى كل ما يحقق البعد التداولي التهذيبي . ومن هذه المصطلحات نذكر ما يلي

- التهذيان : وهو ما لا داعي له من الكلام .
- الهُجْرُ : وهو ما لا سبب له من الكلام .
- الحصر : وهو التقصير في كم الخبر .
- الهَذْرُ : وهو التوسع في كم الخبر .
- العجز (التواني) : وهو تقديم ما يقتضي التأخير .
- الكرم : وهو النزاهة عن الذم .
- الملق : وهو التجاوز في المدح .
- اللغو : وهو عدم مراعاة المقاصد في الكلام .⁽³⁰⁾

فهذه المصطلحات تدل على عناية الماوردي الكبيرة بتوجيه المتكلمين إلى الأدب الرفيع ، وحثهم على تجنب الاستعمال الوضيع .

آداب الكلام عند الماوردي :

ونذكر في الأخير آداب الكلام التي أشار إليها الماوردي وهي مجموعة من القواعد يلتزم بها المتكلم في خطابه ، وهي قيم تداولية متصلة بقواعد التبليغ والتهذيب وقد دعمها بأمثلة من التراث العربي يقول الماوردي : " واعلم أن للكلام آدابا إن أغفلها المتكلم أذهب رونق كلامه ، وطمس بهجة بيانه ، ولها الناس عن محاسن فضله بمساوي أدبه فعدلوا عن مناقبه بذكر مثالبه."⁽³¹⁾ فمن آدابه يذكر ما يلي

⁽³⁰⁾ - ينظر : نفسه . ص 205 .

⁽³¹⁾ - نفسه . ص 208 .

- 1- " ألا يتجاوز في مدح ، ولا يسرف في ذم ، وإن كانت النزاهة عن الذم كرمًا ، والتجاوز في المدح ملقا يصدر عن مهانة ، والسرف في الذم إنتقام يصدر عن شر ، وكلاهما شين وإن سلم من الكذب."
- 2- ألا تبعثه الرغبة والرغبة على الاسترسال في وعد أو وعيد يعجز عنهما ، ولا يقدر على الوفاء بهما . يقول الماوردي : " فإن من أطلق بهما لسانه ، وأرسل فيهما عنانه ، ولم يستثقل من القول ما يستثقله من العمل ، صار وعده نكثا ووعيده عجزا . " وقد جعل سيرل هذا العنصر من الشروط التأسيسية للفعل الكلامي التي لا يكون الفعل ناجحا إلا بها . وهو هنا قدرة المتكلم على الوفاء بوعده."
- 3- ومن آدابه أنه إذا قال قولا حققه بفعله ، وإذا تكلم بكلام صدقه بعمله (مبدأ التصديق) فإن إرسال القول إختيار ، والعمل به إضطرار ، ولأن يفعل ما لم يقل أجمل من أن يقول ما لم يفعل .
- 4- ومن آدابه أن يراعي مخارج كلامه بحسب مقاصده وأغراضه . فإن كان ترغيبا قرنه باللين واللفظ ، وإن كان ترهيبا خلطه بالخشونة والعنف ، فإن لين اللفظ في الترهيب ، وخشونته في الترغيب ، خروج عن موضعهما وتعطيل المقصود بهما ، فيصير الكلام لغوا والغرض المقصود لهوا ، وقد قال أبو الأسود الدؤلي لابنه : " يا بني إن كنت في قوم فلا تتكلم بكلام من هو فوقك فيمقتوك ، ولا بكلام من هو دونك فيزدروك"
- 5- ومن آدابه ألا يرفع بكلامه صوتا مستكرها ، ولا ينزعج له انزعاجا مستهجنا ، وليكيف عن حركة تكون طيشا ، وعن حركة تكون عيا ، فإن نقص الطيش أكثر من فضل البلاغة . وقد حكى أن الحجاج قال لأعرابي :
" أخطيب أنا ؟ قال نعم لولا أنك تكثر الرد وتشير باليد وتقول أما بعد."

6- ومن آدابه أن يتجافى هجر القول ، ومستقبج الكلام ، وهذا يندرج ضمن المحظور اللغوي والتأدب الاجتماعي ، وليعدل إلى الكناية عما يستقبج صريحه ويستتهجن فصيحته ، ليبلغ الغرض ولسانه نزه ، وأدبه مصون ،وقد قال محمد بن علي في قوله تعالى : "وإذا مروا باللغو مروا كراما " قال : إذا ذكروا الفروج كنوا عنها . ويلحق بهذا ما يجري مجرى فحش القول وهجره وما هو من القول المتكلف الشنيع . إن إنتفاء اللفظ الملائم للموقف المعين واستعماله إستعمالا صحيحا هو ما يدعو إليه أيضا أبو هلال العسكري الذي يقول : "الكلام إذا كان لفظه غثا ومعرضه رثا ، كان مردودا ولو احتوى على أحلى معنى وأنبله وأرفعه وأفضله " . فالآليات التداولية تتنافى مع اللفظ الغث غير المناسب، لذلك يجب على المتكلم أن يركز على ما يحقق القبولية لدى المتلقي ويدفع عنه المستكره غير المقبول .

7- ومن آدابه أن يجتنب أمثال العامة الغوغاء ويتخصص بأمثال العلماء الأدباء وحكي أن الرشيد سأل الأصمعي يوما عن أنساب بعض العرب فقال : على الخبير سقطت يا أمير المؤمنين . فقال له الفضل ابن الربيع : أسقط الله جنبيك . أتخاطب أمير المؤمنين بمثل هذا الخطاب ؟ فكان الفضل ابن الربيع مع قلة علمه أعلم بما يستعمل من الكلام في محاوراة الخلفاء . ويشترط في المثال أن يناسب حال السامع ليكون أبلغ تأثيرا وأحسن موقعا⁽³²⁾ .

(32) - ينظر : نفسه . ص 202 - 212 .

الخاتمة :

لقد وضع الدارسون لقواعد التبليغ مبادئ هي : أن يكون الكلام لداع ، وأن يكون مقتصرًا على قدر الحاجة ، وأن يكون متخير اللفظ ، وأن يؤتى به في موضعه . وجعلوا من قواعد التهذيب مبادئ هي : التعاون ، والملاءمة ، والتأدب ، والتواضع ، والتأدب الأقصى ، وأخيرًا مبدأ التصديق الذي أضافه طه عبد الرحمن مستلهما ذلك من التراث الإسلامي .

وكان أبو الحسن الماوردي قد أشار إلى تلك الأبعاد التداولية وجعلها من شروط الكلام في كتابه البليغ : أدب الدنيا والدين . فقد وضع قواعد جامعة لمبدأ التعاون والقواعد المتفرعة عنه وهي : الكم ، العلاقة ، النوعية ، والطريقة ووضع لذلك مجموعة من المصطلحات مثل : الهذيان والهجر والحصر والهدر والعجز والكرم والملق واللغو . والتي هي بمثابة ضوابط المخاطبة . كما حدد قواعد التبليغ وسماها شروط الكلام فجعلها خمسة . فالأول أن يكون الكلام لداع إذ أن ما لا داعي له هذيان ، والثاني أن يأتي بالكلام في موضعه لأن لكل مقام قولا ، والثالث أن يقتصر من الكلام على قدر حاجته فهو ينحصر بالحاجة ويقدر بالكفاية محذرا من فضول القول ، والرابع وهذا الشرط هو لب مبدأ التأدب وهو اختيار اللفظ الذي يتكلم به فيلزم أن يكون لفظه مهذبا فصيحاً ، وأن تكون معانيه صحيحة .

وختم هذه الماوردي هذه الشروط بذكر آداب الكلام وهي الآداب التي قام التداوليون اليوم بشرحها وتوسيعها ووضع ضوابطها ، ومن آداب الكلام نذكر التوجيهات التالية الخاصة بالمتكلم :

- ألا يتجاوز في مدح ، ولا يسرف في ذم ، مع عدم الاسترسال في وعد أو وعيد يعجز عنهما ولا يقدر على الوفاء بهما حتى لا يكون وعده نكثا ، ووعيده عجزا ، وإذا قال قولا حققه بفعله (مبدأ التصديق) .

- ومن آدابه أن يراعي مخارج كلامه بحسب مقاصده وأغراضه ، فإن كان ترغيبا قرنه باللين واللفظ ، وإن كان ترهيبا عبر عنه بأسلوب القوة والشدة .

- ومن آدابه أن يتجافى هجر القول ، ومستتبع الكلام ، وليعدل إلى الكناية عما يستتبع صريحه ، ويشترط في المثال أن يناسب حال السامع ليكون أبلغ تأثيرا وأحسن موقعا .

وبذلك يكون الماوردي قد سبق هذه الدراسات بقرون ، وكان له إسهام كبير في ازدهار التداولية في التراث العربي.